غـزل
بشـــار العـــذري

دراسة موضوعية

الدكتور
حافظ المنصوري

التمهيد

شاع بين دارسي الادب قدماء ومحدثين ان بشار بن برد من الشعراء الخلعاء في العصر العباسي ، وضموا اسمه الى قائمتهم فهو في مجونه كأبي نواس ووالبه بن الحباب والحسين بن الضحاك وربيعة الرقي وغيرهم. وهم في هذا كله يطلقون احكامهم اطلاقاً ، ولايميزون بين غزلهم الفاحش ، وغزلهم العفيف وكأن الشاعر عندهم اما ان يكون فاحشاً خليعاً في غزله واما ان يكون عفيفاً ، بل انهم عدوا شعراء الغزل في العصر العباسي الأول جميعهم من الخلعاء الذين لا يرعون حرمة للمرأة ، ولا يتورعون عن التصريح بمفاتن الجسد ، ولذة الغريزة ، اذ اصبح ظهور شاعر عفيف في هذا العصر امراً شاذاً لايقبله العقل مثلما حسبوا ظهور العباس بن الأحنف بفنه العفيف امراً شاذاً على قيم العصر ومبادئه ، فالدكتور طه حسين يرى ((ان العباس بن الأحنف سقط بين الكرسين . كما يقول الفرنسيون . لانه لم يبلغ اتقان الغزلين من شعراء بني امية ، ولم يبلغ اجادة العابثين من شعراء بني العباس ، وانما جاء فاتراً ، قلما

يترك في النفس اثراً قوياً ، لأن الفن الذي اراد ان يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الاسباب التي اوجدته))[1].

وتبع طه حسين على النهج نفسه دارسون اخرون من امثال جورج غريب في كتابه (الغزل ، تاريخه واعلامه)[2] وحسان ابو رحاب في كتابه (الغزل عند العرب)[3]والدكتور شوقي ضيف[4] ويرى باحث معاصر في غزل بشار ان المرأة لديه ((صوت مسموع متغاير النغمة ، اما جمالها المدرك بالنظر او قبحها فهذا ما يفتقر اليه لذا تتحول المرأة عنده الى وجبة مادية تسد رمقاً حسياً))[1] ويرى هذا الباحث ان المرأة عند بشار وربيعة الرقي ((قد تحولت الى فهم عبثي صارخ لا يرى فيها غير الجسد الذي جهد بشار في طلبه قولاً وفعلاً وهو لا يرى من المرأة الا الغواية والشهوة))[2] ويرى ايضاً ان قدرة بشار منصبة على الجانب الحسي ، فلا يشغل نفسه الا بهذا الجانب من المرأة))[3] ويراه باحث اخر ((بانه اباحي الشوق شهواني الحب بهيمي اللذة))[4].

وفي ظني ان اغلب الدارسين قد تأثروا بما ساقه صاحب الأغاني من اخبار عن بشار تلك التي دل اكثرها على معنى الفحش والخلاعة ومنها ما قاله ((عهدي بالبصرة وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ الا يروي من شعر بشار ، ولا نائحة ولا

---

(١) حديث الأربعاء ، طه حسين ١/٢٩٤.

(٢) انظر ص٣٧.

(٣) انظر ص٢٠٥.

(٤) الفن ومذاهبه في الشعر ، ص٦٤.

(١) شعر المكفوفين ، د. عدنان عبيد العلي ، ص١٨٤.

(٢) نفسه ، ص١٨١.

(٣) نفسه ، ص١٨٤.

(٤) بشار بن برد بين الجد والجون ، حسين منصور ، ص٥١.

مغنية الا تتكسب به ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه))[٥]، ومع ذلك فعلى شدة هذه الموجة الشائعة عن غزل بشار نجد من الدارسين مَنْ هم اكثر انصافاً وروية في احكامهم على شعر بشار ، فمنهم من رأى ان شعره يجمع بين فحش القول وبين القول الحكيم الذي يجري على السنة الناس اعجاباً وتمثلاً واستشهاداً))[٦].

ويرى الدكتور توفيق الفيل ((ان هناك اتجاهين في غزل بشار ، حسي وغير حسي))[٧]. كذلك قد اشار الدكتور حسين عطوان الى ان لبشار مقدمات تحتوي غزلاً تقليدياً فيه معاني العذريين وذلك لانه كان ينشد هذه القصائد امام كبار الخلفاء والولاة[٨] ، ويرى آخر ((ان نسيب بشار جرى مجرى الغزل العذري في العصر الاموي))[٩] ويقول مرة اخرى (٠ ان شاعراً يقف اكثر نسبية على امرأة واحدة يبثها فيه شوقه ويشكو فيه بعادها ويأتي فيه بالمعاني الغربية والعاطفة القوية لشاعرٌ صادق التعبير عما يجول في نفسه مخلص في حبه))[١٠] واقوال اخرى مشابهة وفيهذا اعتراف ان لبشار غزلاً عذرياً جديراً بالدراسة ، وربما انطبق عليه قول من يرى ((ان بين الحسيين والعذريين شعراء توسطو في الامر فأباحوا احياناً وتعففوا أحياناً اخرى وذلك كلفهم باللذة لانها لذة وبالعفة لانها عفة وكان يعنيهم ان يقال تغزلوا فاجادوا الغزل[١] ومهما يكن فان

---

(٥) الأغاني ، ابو فرج الأصفهاني ، ١٤٩/٣ .

(٦) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ، د. مصطفى الشكعة ، ص٤٢.

(٧) القيم الفنية المستحدثة ، ص١٦٧ .

(٨) انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي ، ص١٦٩ .

(٩) بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، د. عمر فروخ ،١١٥ .

(١٠) انظر: بشار بن برد ، د. طه الجابري ، ص٤٢.

(١) الادب الاموي صورة رائعة من البيان العربي ، د. ابراهيم علي ابو الخشب ، ص٧٠.

ديوان بشار وما يضمه من اشعار بين دفتيه هو الحكم الفصل في الموضوع.

اشكالية البحث

لقد اردت في هذا البحث ان اقترب من حقيقة بشار بعيداً عن اراء الدارسين معتمداً على ديوانه لان الديوان من اصدق المصادر واقدمها عن الشاعر ، فلدي استقرائي للديوان وجدت فيه ما يخالف الاراء الكثيرة التي قيلت فيه اذ ان غزله الذي ينحو فيه نحواً عذرياً يفوق في كمه غزله الصريح او المكشوف ، وهو فيه ينحا منحى العذريين من شعراء العصر الاموي او بعض شعراء الدولتين ، فلماذا وصف بانه شاعر خليع ولم يوصف بانه شاعر عذري؟.

هذا من جهه ومن جهه اخرى اردت ان اشير الى ان كثير من الاحكام التي صدرت على ادبنا القديم فيها كثير من عدم الموضوعية ، وان كثيراً من الباحثين يتكئُ على احكام غيره ، ولو كانت مجانبة للصحة كما ان بعض الباحثين من يبني احكامه على ابيات مفردة يختارها من قصائد طويلة ، وهو اسلوب في الدراسة غيردقيق لان القصيدة كلٌ متكامل . ولاسيما قصائد الغزل . تنظم في وقت تعبر عن رؤية شعرية معينة ، يمثل فيها الشاعر نهجاً معيناً من الفكر والاتجاه والسلوك ، فقد يكون الشاعر عذرياً تماما في كلامه وفكره في قصيدةٍ ، وقد يكون غير ذلك في قصائد سابقة او لاحقة ، لان العذرية لا تختص بزمان معين ولا بمكان معين ولا بشخص دون غيره وقد يكون الفرد خليعاً ماجناً وقد يكون عفيفاً في وقت اخر ، وهذا لايعنينا فنحن نهتم بدراسة النص الشعري مضافاً الى غيره من النصوص المشابهة له وفي هذا البحث ندرس ما لبشار من غزل يحمل معاني العذريين اما غزله الاخر فموضوع بحث اخر.

مظاهر الغزل العذري

الغزل العذري ليس فناً جديداً او طارئاً في عصر بشار بل هو قديم قدم الانسان الذي عرف الحب منذ نشأته. ولكن هذا الفن قد شاع في عصر بني

امية حتى اصبح ((ظاهرة تحتاج الى تفسير))[1].

فكانت هناك طائفة عاشت في اواخر العصر الاموي وادركت العصر العباسي كابي حيّة النميري والحسين بن مطير وبكر بن نطاح الحنفي وغيرهم.

واذا اردنا ان نستقري مظاهر العذرية في شعر هؤلاء جميعاً ، نجدها تتركز حول مفاهيم ودلالات معينة منها:

-ذكرهم لمشاهد الرحيل والتحمل الذي ينبئ بالبعد والفراق والهجران وعدم التلاقي بين المحبين.

-كثرة الحديث عن الوشاة والعذال والحساد ، فهم فصل في قضية كل حب.

-حديثهم عن الحمائم الصادحة فهي رمز الالفة والمحبة والوداعة ، او ذكرهم الغراب فهو رمز التطير والبين والفراق.

-محاولة اخفاء حبهم حرصاً منهم على عدم فضح حبيباتهم بسبب قسوة التقاليد الاجتماعية.

-كثرة حديثهم في شعرهم عن العاشق المقتول بسهم لحاظ حبيبته او بسيف هجرها الصارم.

-ادعاؤهم ان الحب بلوي او قضاء وقدر.

-ومن ذلك ايضاً - لجوؤهم الى اساليب القسم بالله وبالمقدسات الاخر وغير ذلك.

واذا فتشنا عن ذلك كله نجده مبثوثاً في غزل بشار فضلاً عن تفرده بتجارب اخر لانجدها عند العذريين ممن سبقوه ، كحديثه عن مأساة حبه

---

(١) العصر الاسلامي ، د. شوقي ضيف ، ص٣٥٩.

مقرونة بالليل ، فهو عنده رمز للوحدة والسكون واسترجاع الذكريات ... وما ذلك الا بسبب عماه وعدم تمكنه من رؤية الاشياء معتمداً على سمعه الذي ينشط بعد سكون الاشياء فقد اتخذه تعويضا عن بصره المفقود.

معالم العذرية في غزل بشار

لعل اهم المعالم الكبيرة في غزل بشار العذري الذي يلتقي فيها مع غزل العذريين في العصر الاموي هي:

١- الصد والهجر والفراق

يكثر بشار في غزله من الحديث عن الصد والهجر والفراق وما يعانيه من شوق والم وحسرة ، تلهب في نفسه مشاعر الحزن والالم ، وهو في ذلك يشبه العذريين الى حد بعيد ، فكما كابد العذريون من صد حبيباتهم وهجرهنَّ وتمنعهنَّ ، يعاني بشار من ذلك ايضاً ، اذ ان الهجر يوصله حد السقم يقول[١]:

((عبدُ)) اصبحتِ حياتي ... فصيلني يا حياتي
اغلقي عليَّ بوصلٍ ... باب سقمي واذاتي
واذا ما متُ فابكي ... لطفاً في الباكيات
لا تكوني مثل اخرى ... تتجنى جفواتي
فلقد اصفيتك الشعـ ... ـر برغم الحاسدات

ومن ذلك قوله وهو يقرن فيه بين حديث الوشاة وبيت استجابة حبيبته للهجر يقول[٢]

ويح نفسي رب واشي ... بحديث وثبت للهجر وثبا
ما كذا يصنع المحبُّ فقري ... اين منا مَنْ لا يقارف ذنبا ؟

---

(١) الديوان ٥٦/٢.

(٢) الديوان ٣٨١/١.

لم يكن لي رب سوى الله يا عبدُ فما لي اتخذتُ وجهَكِ ربّا

ومن ذلك قوله[٣]:

عَدَتْ عبدة في الهجر وفي الحب تَعَدَّيْتُ

وقوله[٤]:

كيف لي بالسلو عمن جفاني وفؤادي كالطائر المستجابِ

انا منه ومن جوى الحب امسي في عذاب قد ناء فوق عذابِ

قال: هجر الحبيب يسليك عنها لن تنال السلو قبل اجتنابِ

٢- الواشي واللائم والخلي

لقد اكثر الشعراءُ العذريون في غزلهم من الحديث عن الواشي واللائم والحاسد فهؤلاء فصل في قضية كل حب وهم أي الشعراء ينكرون مواقف هؤلاء، محاولين التخلص منهم ونماذج هذه الاشعار كثيرة في غزل العذريين[١].

واذا استقرينا شعر بشار العذري نظفر بنماذج كثيرة تؤكد ذلك المعنى فلا تكاد قصيدة في غزله العذري تخلو من ذكر الواشي واللائم ولعله في ذكره لتلك الذوات يمثل جانباً من جوانب مذهب العذريين في ((اجتنابهم للمواجهة بين عشقهم وتقاليد المجتمع اذ تطالعنا في اشعارهم وجوه الرقباء والواشين الموكلين بتعقب هؤلاء المحبين))[٢]

فمن ذلك قوله يتحدى فيه لائميهِ وحساده يقول[٣]:

---

(٣) الديوان ٢/٢٨.

(٤) ١/٣٥٤.

(١) انظر تلك النماذج في الشعر ابي حيه النميري ، مجلة المورد مج/٤ عدد ١ لسنة ١٩٧٥ ص١٣٨ وفي شعر الحسين بن مطير مجلة معهد المخطوطات مج/ ٥ ج١ لسنة ١٩٦٩.

(٢) في الشعر الاسلامي والاموي د. عبدالقادر القط ٩٤.٩٥ بتصرف.

(٣) الديوان ٢/١١٣.

يلومك في مودتها ((سعيد)) وما في حب عبدة من جناح
فغركَ ان لومَكَ يا سعيدُ لتمنع بل احرٌ من النزاح
فدع لوم المحب اذا تهادى به حب النساء لحاك لاح
فانك لاترد هوى بلوم ولا طرب المتيم بافتضاح

وقوله وهو يصرح بأسم لائمه[٤]

يقول ابو عمرو غداة تَهَلَّلتْ من العين ذرات وفاض سفوحُها
أجِدَّكَ من ريحانة طاب ريحها ظللتَ تبكي خلة وتنوحها
فقلتُ له: لا تكثر اللوم انني أتى من هوى نفسي علي جموحها
كأنكَ لم تعلمْ لعبدة حرمة واسرار حب عندنا لا تبيحها

وقوله[٥]

تَرَقَّبُ فينا العاذلين على الهوى وما نال عيشاً قبلُنا مَنْ ترقبا
يلومك في الحب الخلي ولو غدا بداءِ الهوى لم يرعَ اماً ولا أبا

٣- الوعد والمماطلة

ومما يؤكد عفة العلاقة بين الشاعر وحبيبته تمنعها ومماطلتها وعدم ايفائها بوعودها حين تَعِدُ فضلاً عن صدها وهجرها لمن تحب ، والمماطلة من ديدن العذريات وبالتأكيد سيتبع تلك المماطلة لمن تحب وجدٌ وحزنٌ يبلغ حدالبكاء ، وهذه المعاني التي شاعت في غزل شعراء بني عذرة نجدها شائعة ايضاً . في غزل بشار العذري ، يقول بشار بعد ان يصف محبوبته (عبدة) ويذكر حسد الحاسدات لها ، يقول انها سحابة صيف لم تمطر ، كناية عن تمنعها وهو تشبيه رائع يدل . فيما يدل . على حرمانه وعدم تمكنه منها ، ثم يتوج ذلك

---

(٤) الديوان ١٤٢/٢ وابو عمرو كنية حماد عجرد.

(٥) الديوان ٢١١/١ وينظر الديوان ١٧١/٢ ، ١٣٧/٢، ٥٤/٢ وهو يكثر من ذكر العاذل.

يتأجيلها لوعده. يقول[1]

بيضاء حسناً اشرقتْ صفرة تهتز في غصن الصبى الاغيدِ
تحسدها الجارات من حسنها ومثلُ عبادة فليحسدِ
يحسدن منها قصباً مالئا للقُلّبِ والخلخال والمعضدِ
ومضحكاً منها كما أومضت صيفية المزن ولم ترعدِ
وانها حوراء مكحولةٌ غانية تغني عن الاثمدِ

ومن ذلك قوله[2]:

اذا قلتُ اوفي العهد قالتْ وأعرضتْ
ستدرك ما قد فاتك اليوم في غد

٤- البكاء

البكاء ظاهرة شائعة في غزل العذريين ، وهو علامة الحزن والوجد ، بعد الفراق والهجر والحرمان واشتداد الألم وتألم النفس ، فلا سبيل للمحب الا ان يروّح عن نفسه بالبكاء لأمتصاص حالة الحزن التي تخيم على مشاعره.

فقد كثر ذكر العذريين للبكاء في اشعاهم من ذلك قول ابي حية النميري[3]:

نظرتُ كأني من وراء زجاجة الى الدار من فرط الصبابة انظرُ
فعيناي طوراً تغرقان من البكا فأعشى وطوراً تحسران فأبصرُ
وليس الذي يهمي من العين دمعها ولكنَّ نفسي تذوبُ فتقطرُ

وكقول بكر بن النطاح في (درة) وهو يذكر البكاء الحاصل بعد

---

(١) الديوان ٢/١٧٥-١٧٧.

(٢) الديوان ٢/٢٠٧.

(٣) شعر تابي حية النميري - مجلة المورد مج/ ٤ عدد ١ ، ١٩٧٥ ، ص١٤٧.

الهجر[1]

صـــدتْ فأمســـى لقاؤهـــا حرمـــا واســـتبدل الطـــرفُ بالـــدموع دمـــا
وســـلطتْ حبهـــا علـــى كبـــدي فأبـــدلتني بصـــحةٍ سقمـــا
وصـــرتُ فـــرداً ابكـــي لفرقتهـــا واقـــرعُ الســـن بعـــدها ندمـــا

واذا قرأنا غزل بشار العذري نجده يكثر من ذكر البكاء وهو مرة يذكر البكاء مقروناً بالفراق بعد نزوح الحبيبة ومرة يذكره مقروناً بالصد والجفاء ومرة مع الذكرى التي تهيجه فتدعوه لذلك. يقول[2]

لقـد هـاج دمعـي نـازحٌ بنزوحـه ونـومي اذا مـا نـومَّ النـاسُ أنـزَحُ[3]
وقـال نسـاء الحـي مالـك صافحـاً ومـا كنتَ عن أنس الأوانس تصفحُ

وقوله[4]:

قـال: أذرى المرعـثُ الـدمعَ فأنـهلَ نظامـا وكـان عهـدي جليـدا
مـا لعينيـكَ لـم تـذوقا مـن الليـل رقـاداً ولـم تريـدا جمـودا
فقلت عين بكت من الشيب اذ حل وأخـرى عمَّـن يريني الصـدودا

وقوله[5]:

أعبـادةَ لـو تنسـا كِ نفسـي لتناسـيتُ
ولـو كـان التراخـي عنـد كِ يلهينـي تراخيـتُ
تحليـت بهجرانـي وبالحـب تحليـتُ

(١) بكـر بـن النطـاح ، حياتـه وشـعره ، مجلـة المـورد ، مـج / ٥ ع / ٣ ، سـنة ١٩٧٦ ، جمـع وتحقيق غازي النقاش.
(٢) الديوان ١٠٥/٢.
(٣) أنزحُ: أي أبْعَدُ
(٤) الديوان: ١٨٨/٢.
(٥) الديوان: ٣٢/٢.

ومازلـــــت بنـــــا حتـــــى بكـــــتْ عينـــــي وأبكيـــــتُ
فقـــــد آثـــــرك القلـــــبُ علـــــى مـــــن كنـــــت آخيـــــتُ

ثم في آخر الأمر يروق له ان يرى حبيبته تبكي عليه بعد موته ، فهو المقتول من حبها وهي القاتلة النائحة. يقول[1]

صـــــاحِ أوصـــــيكَ اليـــــها ثقـــــةً فـــــاحفظ وصاتـــــي
قـــــلْ (لعبـــــادة) ردي بعـــــضَ حزنـــــي واذاتـــــي
واذا مـــــا مـــــتُّ فابكـــــي لَطَفـــــا فـــــي الباكيـــــات
فلقـــــد اصْـــــفَيتُك الشعـــــ ـــــرَ بـــــرغم الحاســـــدات

٥- ذكر الحمامة والغراب

والحمامة رمز الحب والاخلاص والوفاء والحنين والرقة والوداعة ، وهي كذلك رمز الحزن والصبابة والبكاء[2] تصدو في الصباح والعشي فتذكر بالحبيبة المفارقة ، فتهيج احزان المحب واشواقه فتبعثه على القول ، وقد كثر ذكرها عند العذريين كجميل ، والمجنون ، وقيس بن ذريح ، فجميل كان يذكر حبيبته كلما سمع حمامة تنوح يقول[3]:

طربت وهاج الشوق فيَّ وربما طربتُ فأبكاني الحمامُ الهواتفُ

وقد يجمع بين الحمامة وبين الغراب رمز التطير والتشاؤم ، يقول[4]:

فأن لم تهجني ذات يوم فانه سيكفيك ورقاءَ السراةِ صدٌّ

اما عند بشار فيأتي ذكر الحمامة مرتبطاً باللوعة ، وعَدم السلو ، فهي

---

(١) الديوان: ٥٦/٢.

(٢) انظر: المرشد الى فهم اشعار العرب ، عبدالله الطيب المجذوب ، ١٢٥/٣.

(٣) ديوان جميل: ص٧١.

(٤) نفسه: ص٤٨.

كلما تصدح تدعو الى الآرق والسهاد يقول[٥]:

فلستُ بسال ما تغنت حمامة وما شاق رهبان النصارى مسيحها

وقوله[٦]

اذا شئت ابكاني الحمام بصوته وهاج عليَّ الشوق طولُ سياتي

اما الغراب فهو دليل الشؤم والتطير وكان الشعراء العذريون يرتابون من صوته ويتوجسون ((وكان العرب يسمونه حاتِماً لأنه يَحْتِمُ عندهم بالفراق))[٧] فصوته حين

ينعب ينبيء بالفراق. يقول قيس بن ذريح[١]:

لقد نادى الغراب ببين لبنى فطار القلب من حذر الغراب

وقال: غدا تَبَاعدُ دارُ لبنى وتنأى بعد ودٍّ واقتراب

وفي غزل بشار كذلك نجد ان الغراب باعثٌ على البكاء والحزن ومنبئ بفراق مَنْ يحب ، يقول[٢]:

نعق الغرابُ فخنقتني عبرة وبكيتُ من جزع على الأحباب

يلرب قائلة وخيب علمها ماذا يهيجك من نعيق غراب

كاتمتُها أمري وما شعرتْ به وكذلك قد كاتمته أصحابي

٦- القسم

ولكي يؤكد الشاعر العذري صدق حبه وعفته ومعاناته واخلاصه لحبيبته

---

(٥) الديوان ١٤٣/٢.

(٦) الديوان ٤٤/٢ وينظر: ١٧٦/١.

(٧) العمدة ، ابن رشيق: ٢٦٠/٢.

(١) الديوان: ١٤٠/١.

(٢) الديوان ٢١٥/١.

اولاً ، وليبعد الشك عن نفسها ثانياً ، يلجأ الى القسم بالله والمقدسات الأخرى.

وفي شعر بشار العذري يأتي القسم ليؤكد دلالات منها اخلاصه لحبيبته (عبدة) وعدم اصطفائه اخرى غيرها.

يقول[٣]:

يا عبدُ اقسم بالذي أنا عبدهُ ولـه المقام وما حوت عرفاتُ
لا أصطفي أبداً سواك خليلة فثقي بذلك والكرام ثقاتُ
ولو أنني في الترب ثم دعوتني لبيتُ صوتكِ والعظام رفاتُ
واذا ذكرتك (يا عبيد) تقطعت نفسي عليك وعادني حسراتُ

ويؤكد ذلك الاخلاص مرة اخرى بقوله الذي ينفي فيه حبه لغيرها واخلاصه لها فقط.

يقول[٤]:

أما النساء فأني لا أعيجُ بها قد صمتُ عنها بنحبٍ منكِ منحوبِ
أنتِ التي تشتفي عيني برؤيتها وهنّ عندي كماءٍ غير مشروبِ

وقوله من قصيدة في (عبدة) التي اتهمته بأنه قد (صبا) فيرد عليها ويذكر إخلاصه لها وعدم تعرضه للكوانس في الستور أو في الطرقات ، ويكرر دعوته لها بأن لا تخاف مكانها ويقسم بعدد ما هلَلَ الحجيجُ ولبى.

يقول[١]:

أرسلتْ خلتي من الدمع غربا ثم قالت: صبوتَ بل كنتَ صبا
قلت: كلا بل صفا لك حبّن زادك الله ياعبيدة حبا

---

(٣) الديوان ٣٦/٢ وانظر ١١٥/١ في المعنى نفسه.

(٤) الديوان: ١٩٦/١.

(١) الديوان: ٣٨٠/١.

ما تعرضتُ للكوانس في الستر ولا العارضات سربا فسربا
أنتِ كَدَرتِ شربهن فأصبحن غضابا على يذممن شربا
وتلافيتي بذلك عنهن وانس يصبُ للمحب صبا
فلهن الطلاق مني ، ومني لك طولُ الصفاء والود عنبا
فأطنئني ملكتِ نفسي وقلبي وهمومي فما يجاوزن وصبا
لاتخافي على مكانك عندي عَوْضَ ما هلل الحجيج ولبن

٧- العاشق المقتول

تتكرر صورة العاشق المقتول بيد حبيبته او بلحاظ سهمها او بسيف هجرها كثيراً في الغزل العذري سواء عند كبار شعرائه كجميل بن معمر وكثير عزة ومجنون ليلى ام عند الشعراء الذين ينهجون منهجهم في غزلهم كشعراء البادية من مخضرمي الدولتين (الاموية والعباسية) كابي حية النميري ، وعبد الملك بن عبدالعزيز السلولي ضمن ذلك على سبيل المثال قول ابي حيّة النميري[٢].

وما كنت اخشى ان تكون منيتي بكف اعز الناس كلهم عندي

وقوله:[٣]

كان لم أبَرَّح بالعيون واقتتل بتفتير ابصار الصحاح السقائم

ومثل هذا المعنى يأتي في شعر (عبدالملك بن عبد العزيز السلولي)[٤]

وفي هذه النماذج وغيرها كثيراً ما يطلب الشهراء الثأر من حبيباتهم او الدية والقود ، وفي ذلك اشارة الى المفاهيم الاسلامية التي تحرم القتل وتطلب

---

(٢) شعر ابي حية النميري ١٣٨.
(٣) المصدر السابق ص١٤٣.
(٤) انظر: الاغاني ٢٣/ ٤ ص٢٣، ٤٤، ٤٥.

القود والدية ممن يرتكب جريمة القتل ... وكأنَّ العذريين يحاولون ان ينبهوا الاخرين الى حالة الصد والحرمان والهجر التي يعانون منها على يد محبوباتهم تلك الحالة التي توصل الى القتل والموت عند الشاعر العذري ومن ثم يريد الدية من قاتله ، وكأنَّ حالة الموت والاستشهاد هي النتيجة النهائية لكل حبٍّ عفيف ... ومهما يكن فأن جميع الشعراء بعد جميل بثينة انما ينهلون من بيت جميل المشهور[1].

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

ولذلك يصح القول ان هذا المفهوم في القصيدة العذرية يجسد رثاء النفس لان ((القصيدة العذرية في الشعر العربي تجمع بين التودد الى الحبيبة غزلا عفيفاً قريباً من المثالية وبين رثاء النفس ، صورة حزينة متشائمة ، سوداوية نتيجة لخيبة الامل والاخفاق في تجربة الحب ... انها رثاء لنفس العاشق المحروم كما يتجلى ذلك في معجمها الذي تكثر فيه الالفاظ كالموت والهجر والحرمان ...))[2].

واذا نفذنا الى شعر بشار العذري نجد ذلك مبثوثا في شعره وهو ينحا فيه منحى العذريين تماماً ، ففي هذه القصيدة التي يصور فيها الرحيل الذي يؤذن بدنوّ البين والفراق الذي يؤدي الى الموت يقول[3]

افد الترحل وحثني صبحي والنفس مشرفة على النحب
لما رأيت الهم مجتنحا في القلب والعينان في سكبِ
والبين قد افدت ركائبُهُ والقوم في طرب ومن صببِ
ناديت ان الحب اشعرني قتلاً وما احدثت من ذنبِ

---

(١) ديوان جميل ص٩٩ دار صادر . بيروت.

(٢) المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان ص٣٣.

(٣) الديوان ٢٢١/١ والنحوب جمع نحب وهو الموت.

اهدى لعيني ذكركم سهدا من غير ما سقم ولا طربِ
لو تسمعين وكنتِ شاهدةً ما يقرأ الرهبان في الكتبِ
لوجدتِ حبك قاتلي عجلا ان لم يقرح كاشف الكربِ
فظللت لا ادري اقيم على الهجران او اغدو مع الركبِ

وقوله الذي يذكر فيه انه مات عدة موتات بسبب هجرانه وسلوه يقول[1]:

وبراني الحب حتى كنُرتٌ فيها نحوبي
انا مشغوف بسلمى كالنصارى بالصليبِ

وقوله الاتي الذي يصرح فيه معنى الموت في الحياة يقول[2]:

دفنتني حيا ولا ذنب لي والحي لايدفن حتى يموتٌ
فاقضين بما شئت على عاشق قلبي مقر ولساني صموتٌ
بل ايها العاذل في حبها يجري ولا يدري كذاك المقيتٌ
لم تدر ما حبي وعنبتني والشوق قد كاد بروحي يفوتٌ

وقوله[3] الذي يذكر فيه غصة في الريق من حشرجة الموت:

لما رأتني غَرقا في الهوى اجرضُ بالموت وحولي كتيتٌ
قالت: ثقيل قدَ دنا موته فقلت: ما كل مريض يموتٌ
تحت يد الله فلا تحزني ان متُّ من داء الهوى او بريتٌ

٨- الليل والاحزان

مما يحسب لبشار من تجارب جديدة في غزله العذري كثرة حديثه عن الليل وهو يقرن اسقامه وغربته به في احاديث تنم عن ذوقه المتطور المتأثر

---

(١) الديوان ٢٢١/١ والنحوب جمع نحب وهو الموت.
(٢) الديوان ٣٣/٢.
(٣) الديوان ٢٣/٢.

بالنمو الثقافي والحضاري الحاصل في العصر العباسي ، فصورهُ التي يدبجها في شعره وفي غزله خاصة تفصح عن حس مرهف وقاد هو حس البعير الذي عوضه الله سبحانه ذكاء البصيرة ، وصقلته الحضارة ...

وبشار غالباً ما يصحو ويفرغ لذكر صباباته ومواجده عندما يجن الليل ويضرب سدوله ، فتهدأ الكائنات وتسكن الاصوات ، فتنبعث في نفسه الذكريات التي عاشها في الماضي والحاضر وكأنها شريط بطيء الحركة فيبدأ بشار يلتقط منها ما يشاء ، وهي تذكره باشواقه ومواجده واحزانه فيسجل في ضوئها صوراً مختلفة:

فمن قوله في (عبدة) وهو يتمنى عليها ان تمنَّ عليه بنوم ، فهو يساور الليل تحت وطأة الهم بسبب هجرها وفراقها الطويل يقول[1]:

ياطيب عبدة ويلي منك ياطيبي ... قطعت قلبي بشوق غير تعتيب
قل للتي نفسها وما شعرت ... منيّ عليَّ بنوم منك موهوب
ان الرسول الذي ارسلتِ غادرني ... بغلةٍ مثل حرِّ النَّار مشبوب
اساور الليل تحت الهم مجتنحا ... من طَّول صفحك عني في اعاجيب
كأني بي منك طبا لا يفارقني ... وان غدوت صحيحا غير مطبوب

الى ان يقول[2]:

يغشاني الموت من وجد بها ديما ... والشوق تأخذني منها اهاضيب
للقلب راع اليها لا يفارقني ... وفي الضمير من الحب الاعاجيب
لهفان قد يشتهي رَوْحا يعيش به ... بادي الصبابة والهجران تعذيب

وقوله وهو يشكو السهاد وعدم النوم والضعف والنحول ويذكر طيفها

---

(١) الديوان ١/ ١٩٤.

(٢) الديوان ١/ ١٩٤.

الذي المَّ به[٣]:

لم يطل ليلي ولكن لم انم ونفي عني الكرى طيفٌ ألَمّ
نَفسّي ياعبدٌ عني واعلمي انني يا عبد من لحم ودمّ
ان في بردي جسماً ناحلا لو توكأت عليه لانهدمّ
واذا قلت لها جودي لنا خرجتْ بالصمت عن لا ونعمّ

ومن ذلك قوله الذي فيه مجافاة عيبنه النوم ، وكأن جفونها قد قصرت فلم تطبق على مقلتيها يقول[٤]:

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصارُ

ومرة اخرى يعاني من طول الليل وكأنه يجثم على صدره فيتمنى زواله ويسأل ، ما بال الدجى ليس يبرح ؟ اضل الصباح طريقه ام انّ الدهر كله ليل ؟ وما سبب هذا الا كثرة همومه التي اهاجها نزوح حبيبته ، فصار لايعرف الكرى طيل ليله وهو يذكر بشكوى امرىء القيس من ليله الطويل يقول[٥]:

خليلي ما بال الدجى ليس يبرحُ وما بال ضوء الصبح لايتوضحُ ؟
اضل الصباحُ المستنير طريقَه ام الدهر ليل كله ليس يبرح ؟
كأنَّ الدجى زادت وما زادت الدجى ولكن اطال الليلَ همٌّ مبرح
لقد هاج دمعي نازح بنزوحه ونومي اذا ما نوم الناس انزح
فيا طول هذا الليل لا اعرف الكرى ولا الصبح فيه راحة فأروح

ويذكر بشار ضعفه وملازمة الصبابة له ويصف ليله بليل من لدغته افعى او عقرب يقول[١]:

---

(٣) الديوان ٤/ ٥٤.

(٤) الديوان.

(٥) الديوان ٢/ ١٠٤-١٠٦ وانظر الديوان ٢/ ٥٢ في اللمعنى نفسه.

(١) الديوان: ١/ ٢٢٠.

وكـــأن ليلـــك مـــن تذكرهـــا ليـــل الســـليم ســـرت عقاربـــه

فتركنـــه يفشـــى أخـــا حـــدث تبكـــــي لفرقتـــــه قرائبـــــه

رجـــل تصـــاحبه صبابتـــــه وأرى الجـــــلادة لا تصـــــاحبه

وقال ايضاً وهو يصف رقاده في ليله برقاد (الوصب الارمد).

يقول[٢]:

يـا طـول هـذا الليـل لـم أرقـد الا رقـــاد الوصـــب الأرمـــد

مثـل اكتحـال العـين نـومي بـه بـل دون كحـل العـين بـالمرود

أراقـب الصـبحَ كـأني أمـرؤ مـن راحـة فيـه علـى موعـد

تعجبـاً ممـا دهـاني بـه أقـرب جيرانـي لـذي الأبعـد

واقرب جيرانه حبيبته و (ذي الأبعد) الواشي الذي سعى بيتهما بالفساد.

ويضجر من الليل اذ يتمنى عدم عودته لأنه يحمل معه العناء فهو يسهر الليل ليرقب الصباح لأعتقاده ان فيه راحة من تعبه ولكن دون جدوى فالأصباح مثل الليل فيها معاناة ووصب.

يقول[١]

أبُ ليلـي ليـت ليلـي لـم يَـؤُبُ انمـا الليـل عنـاءٌ للوصـب

أرقـب الليـل كـأني واجـدٌ راحـة فـي الصـبح مـن جهـد التعـب

ولقـد أعلـم انـي مصبـح مثلمـا امسـيت ان لـم تحتسـب

وهو دائم الشكوى من ليله وصبحه فهو يعاني من سهاد الليل وعدم الراحة في الصباح ، بل هو يستعد لمفارقة الحياة وتستعد النائحات لنوحه.

يقول[٢]:

---

(٢) الديوام: ٢/ ١٧٠.

(١) الديوان: ١/ ٣٤٨.

مـــادواءُ الـــذي يســـهد بالليـــل ولايســـــتريح فـــــي الأصـــــباح

فتجهـــزت لأنقضـــاء حيـــاتي واســـــتعدت لميتـــــي انـــــواحي

هذه اهم ملامح العذرية في غزل بشار بن برد وهي تؤكد ان لبشار غزلاً عذرياً ينحو فيه نحو العذريين من شعراء بني عذرة ، وان كان بشار قد وصف بأنه شاعر خليع فلا ريب فأن كبار الشعراء والمبدعين منهم لم تقف بوجوهم الحدود والقواعد فهم قادرون على الكتابة في أي فن من فنون الشعر المختلفة. فالعذرية صارت منهجاً يحتذى بعد ان وضع اصولها وقواعدها في الشعر شعراء بنى عذرة مما هيأ لكل مبدع كبير ان يمارس نظم الشعر العذري وان كان خليعاً في سلوكه ولاسيما اذا عرفنا ان الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير كما يقول الجاحظ[٣].

قائمة المصادر والمراجع

١- الأغاني ، ابو الفرج الأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت.

٢- بشار بن برد ، د.طه الساجري ، سلسلة نوابغ الفكر . ٨ . ، ط/٤ ، دار المعارف بمصر.

٣- بشار بن برد بين الجد والمجون ، حسين منصور ، ط/١ ، ١٩٣٠م.

٤- بشار بن برد وفاتحة العصر العباسي ، د. عمر فروخ ، دار بيروت للطباعة والنشر.

٥- بكر بن النطاح حياته وشعره ، جمع وتحقيق غازي النقاش ، مجلة المورد ، مج/٥ ، عدد/٣ ، ١٩٧٦.

(٢) الديوان: ١٤١/٢.

(٣) الحيوانت: ٢٧/١.

٦- حيث الاربعاء ، د. طه حسين ، ط٩ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

٧- الحسين بن مطير ، حياته وشعره ، د. حسين عطوان ، مجلة المخطوطات العربية ، مج/١٥ ، ج/١ ، ١٩٦٣ .

٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٣٨ .

٩- ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠م.

١٠-ديوان مجنون ليلى ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧١ .

١١-رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ، د. مصطفى الشكعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

١٢- شعر ابي حية النميري ، جمع وتحقيق رحيم صخي التولي ، المورد ، مج/٤ عدد/١ ، ١٩٧٥ .

١٣-شعر المكفوفين في العصر العباسي أ.د عدنان عبيد ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، عمان ـ الاردن ، ١٩٩٩م.

١٤-العصر الاسلامي د. شوقي ضيف ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ .

١٥-العمدة فى محاسن الشعر وادابه ونقده ، ابن رشيق القيروانى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥ .

١٦-الغزل تاريخه واعلامه ، جورج غريب ، دار الثقافة ببيروت ، لبنان (د.ت).

١٧-الغزل عند العرب ، حسان ابو رحاب ، ط١، ١٩٤٢ .

١٨-الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، ط١٠ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨ .

١٩-المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان ، بغداد ، مطبعة الزهراء

١٩٧٤.

٢٠-المرشـد الى فهم اشـعار العرب ، عبدالله الطيب المجذوب ، ط١ ، بيروت ، ١٩٢٠م.

٢١-مقدمة القصيدة في العصر العباسي الاول ، د. حسيتن عطوان ،دار المعـارف بمصر ، ١٩٧٤.